

The concept of rhetoric and the reality of miraculousness At Al-Khattabi.

Antar Gacem ^{1*}, Derradji Saidi ²

¹: Atlas Popular Culture Laboratory / Algiers -2- University (Algeria), antar.kacem@univ-alger2.dz

²: The height school of teachers (Algeria), saididerradji@yahoo.fr

Received: 07/2023, Published: 09/2023

ABSTRACT:

The Arabic rhetoric has defined numerous figurative expressions in which efforts, opinions, and trends have converged for its establishment and the completion of its discussions. Perhaps the most important factor that contributed to the emergence of rhetorical studies and the deepening of its inquiries is the Quranic text, around which various studies revolved. It became the focal point of study in many Islamic Arabic sciences, including rhetorical studies. This field sparked extensive debates about the nature of eloquence in the Quran, the contemplation of its statements, its secrets, and inquiries into the reasons for the diversity of speech, the foundations of its rhetoric, and the various modes of expression and composition. This led to the beginning of the establishment of a scientific approach dedicated to studying the eloquent aspect of the Quran.

Eloquence is one of the most important sciences that help in understanding the Quran, its miracles, and appreciating the beauty of its extraordinary qualities in words, meanings, style, and composition (prosody), which began with Imam Al-Khattabi and culminated in the theory of Abdul Qahir Al-Jurjani.

As we approach this topic for study, we are faced with an important problem: What is the concept of eloquence according to Imam Al-Khattabi, and what is the reality of the eloquent aspect? What new insights have emerged in rhetorical studies?

The aim of this research is to attempt to clarify the concept of eloquence according to Al-Khattabi in the fourth century Hijri and explain the secret of rhetorical eloquence in the Quranic text.

Based on the hypothesis and its expected results, the miraculous studies, which began with theologians, especially the Mu'tazilites such as Al-Jahiz, Abu Isa Al-Ramani, Al-Qadi Abdul Jabbar, and Al-Zamakhshari, and then the Ash'aris, such as Abu Bakr Al-Baqillani and Abdul Qahir Al-Jurjani, have all made valuable contributions to this field. However, this subject still requires someone with a deeper understanding and more comprehensive perspective.

Keywords:

Miracle; Rhetoric; Expression; Mu'tazilites; Ash'aris.

مفهوم البلاغة وحقيقة الإعجاز عند الخطّابي

• عنتر قاسم ¹

• دراجي سعدي ²

¹ جامعة الجزائر -2- أبو القاسم سعد الله / مخبر أطلس الثقافة الشعبية.

² المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

المخلص:

عرفت البلاغة العربية العديد من الإرهاصات التي تضافرت فيها الجهود والآراء والتيارات لأجل قيامها واستكمال مباحثها، ولعل أهم عامل ساعد على انطلاق الدراسات البلاغية وتعميق سؤالها هو النص القرآني الذي دارت حوله مختلف الدراسات وأضحى قطب الدرس في العديد من العلوم العربية الإسلامية ومن جملتها الدرس البلاغي الذي حمل جدلا واسعا حول حقيقة وجه الإعجاز في القرآن وتدبر بيانه وأساره والتساؤل عن أسباب تفاضل الكلام وأسس بلاغته وضروب طرقها في التعبير والتركيب مما أسفر عن بداية التأسيس لمنهج علمي يُعنى بدراسة بيان وجه الإعجاز؛ ذلك أن البلاغة من أهم العلوم التي تُعين على فهم القرآن وإعجازه والوقوف على مطارح الجمال من

خصائص فائقة في الألفاظ والمعاني والأسلوب والتأليف -النظم- الذي بدأ عند الإمام الخطّابي وانتهى بنظرية عند عبد القاهر الجرجاني.

وعند مقاربتنا لهذا الموضوع ونحن بصدد دراسته استوقفنا إشكالية هامة: ما هو مفهوم البلاغة عند الإمام الخطّابي، وما حقيقة وجه الإعجاز، وما الجديد الذي جاء به في الدراسات البلاغية؟ والهدف من هذا البحث محاولة كشف الغموض عن مفهوم البلاغة عند الخطّابي في القرن الرابع الهجري وبيان سر الإعجاز البلاغي في النص القرآني .

وفيما ستسفر عنه الفرضية من نتائج فإن الدراسات الإعجازية التي بدأت بالمتكلمين وفي طليعتهم فرقة المعتزلة: كالجاحظ وأبي عيسى الرماني والقاضي عبد الجبار والزمخشري، ثم الأشاعرة: كأبي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني، كما جمعت في ميادين البحث اللغوي والنحوي والبلاغي؛ كلهم أبلوا البلاء الحسن، وما زال هذا الموضوع بحاجة إلى من هو أطول باعا وأصدق يراعا.

الكلمات المفتاحية:

الإعجاز؛ البلاغة؛ البيان؛ المعتزلة؛ الأشاعرة.

1. مقدمة:

ولد الإمام أبو سليمان حمّد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي الخطّابي الشافعي في مدينة بست بأفغانستان سنة 319 هـ في القرن الرابع الهجري عصر الخلافة العباسية وتوفي فيه (ت: 388 هجرية) حيث عرفت الحركة العلمية ازدهارا كبيرا إثر ظهور المدارس والمكتبات العلمية وتشجيع حركة الترجمة واستقطاب العلماء والأدباء والشعراء من كل الأمصار.

أخذ الإمام الخطّابي اللغة على يد أبي عمر محمد بن عبد الواحد الذي يُعدّ من "الرواة الذين لم يُرَقَط أحفظ منهم ولم يُتَكَلَّم في اللغة أحسن من كلامه"¹، كما أخذ النحو عن إسماعيل بن محمد بن علي الصقّار النحوي "صاحب المبرّد"²، ومسيرته العلمية تؤكد تمكنه وصلته باللسان العربي، كما تتلمذ على يد أبي بكر القفال الشّاسي³ إمام علم الكلام.

أما عن مرجعية الإمام الخطّابي العقديّة فقد وافق أهل السنة والجماعة في كثير من المسائل العلمية العقديّة وهو من أهل السنة والجماعة بالمعنى الخالص، وقد خلا منهجه مما يُخالف معتقدتهم، ورسالة "بيان إعجاز القرآن"

¹ طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، تج: محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العلمية، مصر، د ت، ج 3، ص 18.

² تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، د ط، بيروت، لبنان، د ت، ج 6، ص 302.

³ يُنظر: طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، ج 3، ص 200.

من النماذج التي تمثل بلاغة أهل السنة⁴؛ فهو من المجتهدين المستقلين، والمطلع على مؤلفاته خاصة "معالم السنن" و"غريب الحديث" يدرك شخصيته وعقيدته حيث تتساوى لديه المذاهب الأربعة.

2. الخطابي علم من أعلام الإعجاز القرآني:

تُعدّ رسالة الخطابي "بيان إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم من أهم المؤلفات العلمية التي جُمعت في كتاب واحد لمؤلفين اختلفت منازعهم وعقائدهم؛ فالرمامي متكلم معتزلي، والخطابي أديب لغوي محدث من أهل السنة والجماعة، وعبد القاهر الجرجاني سني شافعي أشعري، وقد بلغ عدد صفحات الرسالة مئتين واثنين وثلاثين صفحة، كما حازت رسالة الخطابي على ثلاث وستين صفحة من الصفحة 9-72، بين فيها تحدي النبي محمد العرب بالقرآن وإعجازهم عن معارضته وإقراره بعد التحليل العلمي بأن الإعجاز من جهة البلاغة ببعدها الشامل، وقد فصل فيها تفصيلاً دقيقاً مبرزاً أجناس الكلام وتباين درجاتها في البلاغة، وأن بلاغة القرآن أخذت من كل قسم حصة؛ "البليغ الرصين الجزل، والفصيح السهل، والجائز الطلق الرسل"⁵.

يرجع فضل السبق للحديث عن فكرة النظم للخطابي ولكن بمعطيات فكرية تناسب القرن الرابع، وهو الذي ابتدع مصطلح "علاقة الجوار" الذي يربط بين اللفظة والأخرى داخل البنية اللغوية، ومصطلح "علاقة الاختيار" اختيار أفضل الألفاظ، وبهذا يكون الخطابي قد سبق ما يعرفه المحدثون اليوم بالأفق التعاقي الاستبدالي الذي يعني استبدال دليل لغوي بآخر لعلاقة المشابهة لتنتهي إلى التركيب الملائم، وفي هذا يقول عبد العزيز حمودة: "إن هذا الاختيار بين المفردات اللغوية وبين الألفاظ الحوامل للمعاني يقوم بالطبع على انتقاء اللفظة المناسبة بين الألفاظ الأخرى ... أليس هذا في إيجاز مثير للعجب جوهر محور الاستبدال؟ وهكذا في بضعة أسطر فقط يُقدم عقل عربي على جوهر محور التعاقب والاستبدال اللذين يُفتتن بهما الحداثيون العرب في المصادر الأجنبية"⁶.

يرى محمد زغلول سلام في كتابه "أثر القرآن في تطور النقد" أن رأي الخطابي في النظم قريب من رأي عبد القاهر الجرجاني الذي جاء بعده؛ لأن النظم عند الخطابي صورة لللفظة وتفاعلها مع المعنى ولا يمكن الفصل بينهما، وجديد الخطابي لا يُعطي لأحدهما الفضل على الآخر وهو ما وقع فيه "السابقون"⁷، ولعل زغلول سلام يُشير إلى الجاحظ الذي قال بأن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها البدوي والقروي وإنما الشأن في تخير اللفظ وإن كان قول الجاحظ ورأيه حول بيت شعري لا يتسع المقام لسرد قصته كاملة

2. جهود الخطابي في بيان وجه الإعجاز:

⁴ مدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، محمد بن علي الشامل، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيلية، ط 1، الرياض - السعودية، 1997، ص 33.

⁵ بيان إعجاز القرآن للخطابي، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط 3، مصر، د ت، ص 26.

⁶ المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، عبد العزيز حمودة، طبعة عالم المعرفة، د ط، الكويت، 2001، ص 252.

⁷ أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط 3، د ت، ص 2598.

جاء الخطابي بالرأي الذي عليه الأكثرون من علماء الإعجاز والمتكلمين أن الإعجاز القرآني يكمن في ذاته أي في بلاغته، وجديده أن أشار إلى الغموض الذي لفّ البلاغة عندهم مصرحا: "وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ويصعب عليهم منه الانفصال"⁸؛ فبقي يتأمل أقوال من سبقه في قضية البلاغة العربية فما اطمأن من حيرته وحاول كشف الغموض وتحديد العلة وبعد تقصّيه لوجوه الخطاب دلّ دقيق النظر للعلّة التي باين بها القرآن سائر الكلام رافضا الجمود والتقليد وغلبة الظن التي صرح بها في رسالته: "ووجدت عامة أهل هذه المقالة قد جروا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد وضرب من غلبة الظن دون التحقيق له وإحاطة العلم به"⁹، وبعد عمق البحث وجد أن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في التباين متفاوتة ودرجاتها في البلاغة غير متساوية كما أشرنا من قبل؛ فمنها الرصين وهو أعلى طبقات الكلام وأرفعها، ومنها الفصيح القريب، ومنها الجائر الطلق؛ فحازت بلاغة القرآن من كل قسم حصة وجمع بين هذه المختلفات الثلاثة التي يتألف منها الخطاب.

ثم ينتقل الخطابي ليُعرفنا بأسرار النظم قائلا: "وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظما أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً من نظمه"¹⁰، والمقصود من هذه الأمور أركان النظم المتمثلة في اللفظ الحامل والمعنى القائم والرباط الناظم، ومفادها العلامة التي تدل على المعنى وتنتج منه العلامات المختلفة التي تجمع وجوه النظم وتحقق الانسجام بين الدال والمدلول.

أما الرباط الذي أشار إليه الخطابي هو العلاقة المتينة بين اللفظ والمعنى وارتباطهما داخل البنية اللغوية وهو ما قصد به علاقة الاختيار، ويرجع حسن النظم عند الخطابي إلى:

1. حسن اختيار المفردات وإخضاعها للسياق ومقتضى الحال من قبل المتكلم والمعاني التي أريد التعبير عنها.
2. لا ترادف بين الألفاظ فكل كلمة تتميز عن أخرى وإن كانتا تشتركان في المعنى، وإن مجئ كل كلمة في القرآن موضعها المناسب دال على إعجاز القرآن بنظمه، وقد ضرب أمثلة مما يُظن مترادفا كالعلم والمعرفة والبخل والشح ومن وعن وأكله وافترسه، ومن لا يتنبه لهذا حتما يُسيء فهم النص القرآني¹¹.
3. حسن التأليف بين المفردات تقديمًا وتأخيرًا حذفًا وذكرًا؛ فيرى الخطابي أن حُسْن التأليف تركبت فيه جمل القرآن أحسن تركيب كما جاء كل ذلك موضعه الأخص الأشكل به.

⁸ بيان إعجاز القرآن الخطابي، ص 24.

⁹ المصدر نفسه، ص 24.

¹⁰ المصدر نفسه، ص 28.

¹¹ يُنظر: بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص 33.

4. صحة المعاني: فقد جاءت معاني القرآن صادقة في الحكم والمواعظ والنصح والإرشاد والتشريع والعبادة والمعاملة والهداية.

5. تأثير القرآن في النفوس الذي كان سببا في حيرة المشركين ودخولهم الإسلام والتصديق به.

6. الربط بين الأفكار واتصال بعضها ببعض حين الانتقال من موضوع لآخر

وهكذا نجد الخطابي قد كشف عن أسباب حسن النظم من خلال عنايته بالمفردات والمعاني والجمل والترابط والتناسب والتأثير في النفوس؛ فبلاغة المتكلم يحسن النظم وهنا يظهر تأثير الخطابي في منهجه التحليلي بالجاحظ والرماني في تلاؤم اللفظ مع المعنى لتحقيق الوظيفة الجمالية والنفعية في الوقت نفسه والعلم رحم بين أهله.

سبق الذكر أن الخطابي من الأوائل الذين أشاروا إلى قضية غموض العلم البلاغي واستعصاء الكثير من مفاهيمه ومصطلحاته؛ ذلك أن المعرفة البلاغية في التراث الذي سبق الخطابي لم يُصاحبها البسط والتحليل والتعليل إذ كانت موجهة لخاصة الخاصة سواء كان السبب في ذلك بلوغ الجيل السابق مرتبة عالية في التذوق البلاغي أو كانت هناك أسباب أخرى صاحبت ذلك الجيل وغابت عنا تفاصيلها، وأول ما يستوقفنا في منهج الخطابي رفضه للنظرة التي تكتفي بوصف الشيء وصفا عاما ولا يُبين دقائقه وأسراره ولا يُفسر علله وإنما يُبنى على التذوق ولذلك لم يقتنع بما قيل: "وقد يخفى سببه عند البحث ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به... قلت: وهذا لا يُقنع في مثل هذا العلم ولا يشفي من داء الجهل به وإنما هو إشكال أحيل به على إبهام"¹².

إن منهج الخطابي العلمي يرفض الوقوف على ظواهر الأشياء بسطحية دون دراسة علمية، بل يتخطاها إلى البحث عن عللها، وهي قراءة واعية تُقنع الباحث والدارس والناقد والبلاغي على حد سواء، وهذه الغاية البيانية من البلاغة كما حددها الجاحظ بين القائل والسامع أو المتكلم والمخاطب التي تُفضي إلى الفهم والإفهام.

وإذا كانت رؤية الخطابي العلمية قد أدت به إلى القول بالبلاغة وجها مضطردا لإعجاز القرآن فهذه الرؤية التي قادته إلى الوقوف أمام مفاهيم البلاغة وتفسيراتها عند من سبقه من العلماء؛ فالقول بإعجاز القرآن يكمن في بلاغته دون تحديد سمات هذه البلاغة يجعله قولاً تتردد عليه الأجيال تقليدا، والخطابي يريد نظرة موضوعية قائمة على البحث عن أسباب الجمال والمزية، نظرة تبحث عن علل الأشياء وكشف طرق الإبانة في الكلام وكيفياتها وأسبابها وهذا ما جعله يُقر أن القرآن بلغ من البلاغة ما لا يمكن للطاقت البشرية أن تبلغه أو تُقاربه في شيء، وهذه القناعة تحولت إلى مرتكز في التفكير البلاغي عند العرب، وبحثه في رسالته قائم على كشف البلاغة القرآنية التي "ليس فيها شيء من بلاغة النفس الإنسانية، لأنها مما هو فوق طاقة النفس"¹³.

2. أقسام البلاغة عند الخطابي وخصوصياتها:

¹² بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص 25.

¹³ الإعجاز البلاغي، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط 2، القاهرة - مصر، 1997، ص 43.

يرى الخطّابي أن أجناس الكلام مختلفة ودرجاتها في البلاغة متباينة لها خصوصيتها التي جعلت النص القرآني نصا معجزا يعجز عنه البشر في نظمته البلاغي، وقد أضاف بعدا جديدا لمفهوم النظم بما يسمى ثلاثية اللفظ والمعنى والرباط مصرحا: "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة؛ لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم"¹⁴، ولا يكاد يُذكر هذا القول إلا وتأتي صورة الخطّابي في مخيلة الدارس، وثلاثيته بالتفصيل تكمن في:

1. اللفظ: يُعد أحد العناصر المكونة للكلام وقد خصه في رسالته بحديث واسع وإسهاب، والتصور الذي قدمه عن هذا العنصر مبني على أساس الدقة الدلالية والوظيفة التي يؤديها، واختلال الوظيفة يؤدي إلى ضياع الجماليات البلاغية ودقة اختيار اللفظة لتأدية المعنى المراد مناط البلاغة وأساسها المتين كما جاء في صحيفة بشر بن المعتمر الذي ربط الألفاظ بالمعاني بعلاقة تُشبه ارتباط الروح بالجسد، وكل تهاون في اختيار اللفظ ينشأ عنه الخلل في الجانب الدلالي.

2. المعنى: يضعنا الخطّابي أمام العلاقة بين اللفظ والمعنى فلا يمكن بأي حال تصوّر المعاني مجردة عن ألفاظها، يقول الخطّابي: "فأما المعاني التي تحملها الألفاظ فالأمر في معانيتها أشد لأنها نتاج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار"¹⁵؛ فالمعنى نتاج العقل والفهم هو الذي يُحدد العلاقة بين القائل والسامع المتمثل في الوظيفة الإفهامية شريطة أن يكون اللفظ صحيحا ومعناه مستقيما، ويضرب لنا مثلا في قول مسيلمة الكذاب¹⁶ عن الضفدع: نصفك في الماء ونصفك في الطين فلا الماء تكدرين ولا الشارب تُنفرين مصرحا: "أما قول مسيلمة في الضفدع فمعلوم أن كلامه خال من كل فائدة لا لفظه صحيح ولا معناه مستقيم، ولا فيه شيء من الشرائط التي هي أركان البلاغة"¹⁷؛ فاستقامة المعنى عند الخطّابي شرط من شروط بلاغة الكلام ودونها يسقط الكلام ويتهاوى إلى مدارك الانحطاط لتهوي معه الوظيفة الإفهامية والجمالية.

3. النظم: يُعد هذا المصطلح من أهم المصطلحات البلاغية التي استأثرت بحديث واسع لدى البلاغيين من القرن الثالث إلى غاية القرن الخامس الهجريين، وإشارات الأولى ترجع إلى الجاحظ ثم الرماني بنظرة بسيطة، لكن الخطّابي أول من بسط مفهوم هذا المصطلح في رسالته "بيان إعجاز القرآن"، ثم إن حديث الخطّابي عن هذا العنصر الثالث من عناصر البلاغة -النظم- لم يثمنه بالشواهد والأمثلة الكافية لأن المرحلة التي عاش فيها مرحلة الصراع الأيديولوجية التي أدخلت علم الكلام في ساحة الفلسفة الإسلامية وتعرضت للقرآن الكريم مما جعل جهوده محصورة في الدفاع عنه وتنزيهه والانتصار للغة القرآن وبلاغته أكثر من ذكر الأمثلة والشواهد

¹⁴ بيان إعجاز القرآن، الخطّابي، ص 27.

¹⁵ المصدر نفسه، ص 27.

¹⁶ يُنظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي، تح: محمد الأرنؤوط، دار الفكر، ط 1، ج 1، 1998، ص 32.

¹⁷ بيان إعجاز القرآن، الخطّابي، ص 55 - 56.

حول عنصر "النظم" ولكنه فصل فيه تفصيلا وبين دوره في ربط الكلمات بعضها ببعض، ومما تجدر الإشارة إليه أن نظرية النظم في إطارها العام نظرية فنية بين ما جاء به الخطابي وأضافه الجرجاني فتكمن مهمتها في الكشف عن القيم الجمالية الفنية المبثوثة داخل النص القرآني لتدل على إعجازه البلاغي، فدراسة الإعجاز هي سروتطور البلاغة العربية إلى غاية القرن السابع الهجري.

4. إضافات الخطابي في بيان وجوه إعجاز النص القرآني:

يمضي الخطابي مجتهدا في بحثه يكشف لنا وجها جديدا ويضيف للبيان القرآني إضافة لطيفة سديدة لم يذكرها غيره من علماء الإعجاز وهو الأثر النفسي للقرآن الكريم، وقد أشار إليه بعبارة صريحة قائلا: "وقلت في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثورا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في الحال ومن الروعة والمهابة به في أخرى ما يخلص إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الفرق والجزع تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب"¹⁸؛ فالقرآن يدخل في القلوب الخشية والمهابة بل تذرف لسماعه العيون وتهتز المشاعر حتى الجماد يلين ويخشع، ثم إن تأثير القرآن في القلوب قد بلغ مبلغا عظيما لم يعرف قبله ولا بعده كلام قط، إذ تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم روعة وخشية وتعترهم هيبة لا يمكن وصفها أو التعبير عنها، وقد يتأثر بعضهم بأية القدرة الإلهية في الكون مثلا والثاني بالنعيم المذكور في الجنان والثالث بأية تتحدث عن العقاب والمآب وآخر بالكلمة الرقيقة والبلاغة المعجزة؛ فالقرآن الكريم لا يترك نفسا إلا ويتحدث معها عن ملكة من ملكاتها المتعددة الفكرية العقلية أو الوجدانية العاطفية؛ فالكافر يجحد وينفر والمؤمن يسمع ويتدبر، وفي هذا الشأن يورد الخطابي في رسالته: "يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها فكم من عدو للرسول صلى الله عليه وسلم من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمتهم ويدخلون في دينة وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيمانا"¹⁹، وهذا ما حدث مع عمر بن الخطاب عندما قرأ سورة طه، وجبّير بن مطعم عند سماعه سورة الطور، ومن الذين تأثروا بالقرآن وأسلموا من الشعراء لبيد بن ربيعة العامري (ت41هـ/661م)، وكعب بن. هير (ت26هـ/646م)، وحسان بن ثابت (ت50و54هـ)، الذين أخذ القرآن بمجامع قلوبهم وأذهلهم ببلاغته وفصاحته، ذلك أن القرآن "فضح مكنونات أنفسهم وخفاياها مما يبيتون من القول ثم مخاطبة تلك النفس بما يلائمها من الآيات وهذا سر من أسرار الإعجاز النفسي"²⁰.

¹⁸ المصدر نفسه، ص 70.

¹⁹ المصدر نفسه، ص 70.

²⁰ المعجزة الخالدة، محمد متولي الشعراوي، المكتبة العصرية، ط1، لبنان، 2005، ص 90.

ما كان هذا التأثير في القلوب ليكون إلا لشيء في القرآن ذاته يكمن في أسلوبه المعجز وبلاغته في أداء المعاني بوضوح وتصويرها وموسيقاه التي تُطرب النفوس، إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حال السعيد والشقي والفرح والحزين، إنه المضمون الذي يُخاطب العقل مع النفس من أحكام وأخلاق وعلوم وقصص ووعد ووعد وتخويف وتهديد، وهذا ما حمل بعض النصارى من إعلان إسلامهم على ما في القرآن من طمأنينة وراحة نفسية تستميل العقول وتستهيوي الأنفس، وإنه إسلام نابع عن قناعة وتأثر، ونذكر على سبيل المثال المفكر الإسلامي "ليوبولد فايس" الذي قال في كتابه: "لقد عرفت الآن بصورة لا تقبل الجدل أن الكتاب الذي كنت متمسكا به في يدي كان كتابا موحى من الله، لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب ... لقد كان ينطق لي من القرآن صوت أعظم من صوت محمد صلى الله عليه وسلم" ²¹، إنه الخالق سبحانه الذي لا يخفى عليه شيء وهو أقرب منا من حبل الوريد.

أما إيتين دينيه فانهر بأسلوب القرآن قائلا: "سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه أحدث هذا التأثير في نفوس علماء لا يمتون بصلة إلى العرب ولا إلى المسلمين، فماذا ترى من أن يكون من قوة الحماسة التي تستهيوي عرب الحجاز وهم نزلت آيات الجميلة بلغتهم" ²²، أما العالم الرياضي الأمريكي جيفري لانغ فقد حدثنا عن شعوره عند سماع القرآن: "كأن له حقوقا عليك بشكل مباشر وشخصي وهو يجادلك وينتقدك ويُخجلك ويسبقني دوما في تفكيري ويُزيل الحواجز التي كنت قد بنيتها من سنوات ويخاطب تساؤلاتي ويبدو أن المبدع كان يقرأ أفكاره فشقت طريقي لخيار واحد" ²³، وهذه نماذج قليلة من كثير تأثروا بالقرآن فأسلموا طواعية ورغبة.

5. الخاتمة:

لقد حاولت جاهدا الإمام بأطراف موضوع سر الإعجاز ووجوه البلاغة والوقوف على أسرارهِ وانتهيت إلى أن فكرة الإعجاز عامة والبلاغة خاصة اهتم بها علماء كثر كالبلاغي والناقد والمتكلم، كانت لهم اليد الطولى في توضيح هذه الفكرة، والملاحظ أن علماء الإعجاز درسوا البلاغة العربية وطوّروا دراستها لغاية أسمى وهي فهم كتاب الله وبيان سر إعجازه، ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع إلى مقدمات مؤلفاتهم التي كثيرا ما يُصرحون فيها بهذه الملاحظة.

ومن خلال عرضنا لجهود الإمام الخطّابي في مفهوم البلاغة وحقيقة وجه الإعجاز سجلنا أهم النتائج التالية:

- إعجاز القرآن عند الخطّابي بالنظم البديع والمعاني الدالة والألفاظ السليمة وتأثيره في النفوس.
- نظرية الإعجاز بالنظم عند الخطّابي: اللفظ الحامل والمعنى القائم والرباط الناظم.
- بُعد العلماء عن التعصب وقبولهم الآخر أثر تراثا بلاغيا وخدم النص القرآني خدمة جلية.

²¹ الطريق إلى مكة، ليوبولد فايس، ترجمة رفعت السيد علي، مكتبة الملك عبدالعزيز، د ط، السعودية، 1950، ص 416.

²² محمد رسول الله، آيتين دينيه، ترجمة عبد الحليم محمود، مكتبة الملك عبد العزيز، ط 3، السعودية، 1959، ص 119-121.

²³ الصراع من أجل الإيمان، جيفري لانغ، ترجمة، منذر العبسي، مطبعة دار الفكر، د ط، سوريا، 1998، ص 34.

- الدراسات الإعجازية والبلاغية ليست حكرا على زمن أو فرقة أو معتقد.
 - فضل الخطابي في بعث إرهابات نظرية النظم التي تأسست على يدي عبد القاهر الجرجاني.
 - نمت البلاغة وترعرعت علومها في أحضان النص القرآني لخدمته.
- لقد كان لإعجاز القرآن الأثر البالغ في الفكر العربي فقد جمع في ميادين البحث جمهرة من العرب والعجم المتكلمين والمفسرين والبلاغيين واللغويين والأدباء والنقاد في فلك واحد ليفجروا ينابيع الذوق الفكري ويستخلصوا من القرآن مقاييس الجمال وبراعة القول وفنون البلاغة والبيان.
- وفي ظل التوصيات ما يزال الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم بحاجة إلى دراسة مستفيضة وجادة برغبة ملحة وأقلام صادقة وعقول نيرة.

6. قائمة المراجع:

1. أثر القرآن في تطور النقد العربي، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، د.ت.
2. الإعجاز البلاغي: دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط2، القاهرة مصر، 1997.
3. بيان إعجاز القرآن للخطابي، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، مصر، د.ت.
4. تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، لبنان، د.ت.
5. الصراع من أجل الإيمان، جيفري لانغ، ترجمة: منذر العبسي، مطبعة دار الفكر، د.ط، سوريا، 1998.
6. طبقات الشافعية، تاج الدين السبكي، تح: محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العلمية د.ت، مصر، د.ت.
7. الطريق إلى مكة، ليوبولد فايس، ترجمة: رفعت السيد علي، مكتبة الملك عبد العزيز، د.ط، السعودية، 1950.
8. محمد رسول الله، آيتين دينيه، ترجمة: عبد الحليم محمود، مكتبة الملك عبد العزيز، ط3، السعودية، 1959.
9. مدخل إلى دراسة بلاغة أهل السنة، محمد بن علي الشامل، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيليا ط1، الرياض، السعودية، 1997.
10. المرايا المقعرة نحو نظرية نقدية عربية، عبد العزيز حمودة، طبعة عالم المعرفة، د.ط، الكويت، 2001.
11. المعجزة الخالدة، محمد متولي الشعراوي، المكتبة العصرية، ط1، لبنان، 2005.